الفصل الأول

فى
الشباب
وحرية الاختيار

- الاختيار العقائدى
- الاختيار المعيشى
- الاختيار فى بناء الأسرة
- الاختيار السلوكى فى العلاقات الاجتماعية

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الشباب وحرية الاختيار

قضية الشباب الأساسية فى هذا العصر هى قضية حرية الاختيار أمام تحديات معقدة متعددة متداخلة ، وفى نفس الوقت متناقضة . يمكننا أن نجمل قضية الشباب وحرية الاختيار فى اختيارات رئيسية أربع نتعرض لها فى أربعة مباحث وهى :

ـ حرية الاختيار العقائدى ؛ عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان بها باسم العقلانية الواعية المرتبطة بغائية المعرفة أو رفضها باسم المادية الاستهلاكية المسيطرة على نزعات العصر . ثم عقائدية الأيديولوجيات كأنسقة لنظم بين إيديولوجية قيمية وإيديولوجية مصلحية .

ـ حرية الاختيار المعيشى بين التطلع إلى الرفاهية أو الملل منها .

ـ الاختيار الأسرى لشريك أو شريكة الحياة بين غرائزية الاختيار المشبعة بالعاطفة ، أو عاطفة الاختيار المشبعة بالتقدير ، أو افتراض ثالث : الاختيار المصلحى .

ـ حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات الاجتماعية بين سلوك اندفاعى انفعالى ، وبين سلوك متروى ممارس .

***

المبحث الأول

الاختيار الأول : الاختيار العقائدى

عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان بها باسم العقلانية الواعية المرتبطة بغائية المعرفة، أو رفضها باسم مادية استهلاكية مسيطرة على نزعات العصر تعتمد على مراهنة كثيراً ماتكون عنادية أو شخصية أكثر من اعتمادها على تبصر وتعمق فى المعرفة . شباب هذا العصر على مختلف نزعاته وانتماءاته البيئية أو الطبقية أو الحضارية أوحتى الوسط الطبيعى سواء فى المجتمعات المتقدمة أو الفتية النامية يعانى حقاً من قضية حرية الاختيار العقائدى . فما أكثر المضاربات التى وقعت والمقامرات ، وحتى المغامرات منطلقة من حسن النية أو العكس . وقضية الاختيار العقائدى حسب انطباعاتنا ورؤيتنا المتواضعة ، قضية هامة تمت حولها مزايدات باسم الحماس المنصب على شكلية الاختيار أكثر من انصبابها على الجوهر وتوخى الخلفيات والمتناقضات وتسببت فى استنزاف قدرات خلاقة كان على المجتمعات المتقدمة صناعياً أن تستنزفها . فلم تكتف هذه المجتمعات باستنزاف ثروات الشعوب المغلوب على أمرها ونهبها خلال الاستعمار ، بل حاولت أن توقف تقدمها الفتى فى النمو عن طريق استنزاف قدراتها الفكرية الخلاقة فى مواجهات حول قضايا صورية ، حول الألوان والأشكال ؛ فكل مجتمع صناعى من الدول العظمى يسعى أن يلون شعوباً بلونه ، ويصبغها بصباغته عقائدياً أو فكرياً بصفة عامة حتى يحتفظ بها فى دوائر نفوذه ويحقق بذلك مصالحه أولا وقبل كل شىء. ولنفصل ونشرح بكل موضوعية وتجرد ، ولانقصد بذلك إلا وجه الله العلى الكريم ، الملهم للصدق فى الكلم ، والصفاء فى النية والرؤية على حد سواء .

الاختيار على مستوى عقائدية المعتقدات الدينية والروحية بين الإيمان أو الرفض فى المجتمعات المتقدمة الصناعية ، لاشك أن وضعه يختلف بين فئة اجتماعية وأخرى ، بل ويختلف حسب مراحل الفكر وطبيعة المصالح . النخبة مثلا فى هذه المجتمعات الصناعية ترفض إما باسم العناد الفكرى وتحت شعار حريته أمام غائية المعرفة المبرزة لطبيعة القصور لدى المفكر مهما عظمت قدراته العقلية- كما أشرت إلى ذلك تفصيلا فى كتابى « تأملات فى الإسلام » المنشور باللغة الفرنسية ، وإما باسم البحث عن شهرة شخصية وتأليه لها على حساب رفض الإله الأوحد خالق السماوات ، فهذا نوع من الإشراك الفكرى قد يختلف عن عصر الإشراك الأول قبل الوحدانية فقط فى بعض مظاهره ، وبالتالى فهو ردة إلى الإشراك على مستوى عبادة بعض المفكرين لأنفسهم وحث البعض على عبادة أفكارهم بعد أن وضعوا أنفسهم موضع الإله ، وبما أن الشباب فى هذه المجتمعات المتقدمة يتخذ فى أغلب الأحيان نماذجه من هذه النخبة باسم حرية الاختيار ؛ فما أكثر دعاة الرفض بين بنى بيئته . الرفض بطبيعته سهل الأبعاد كنمط فكرى ، فما أسهل الرفض التلقائى ولكن ما أصعب البحث والتعليل . استلب الشباب وعمت حيرته فذابت القيم الأساسية ، وانطلق الرفض من رفض الإله إلى رفض الأسرة ، وفى النهاية إلى رفض الذات . وكان العراء ، العراء الكامل ، عراء للذات من الذات ، فالإيمان بالله يقود إلى الثقة بالذات . وبالنسبة للمجتمعات الفتية ، القضية مطروحة أيضاً على أساس حرية الاختيار بين الإيمان والرفض. وفى السنوات القادمة فى الثمانيات والتسعينيات ستكون أكثر وضوحاً . غير أن الإسلام بما فيه من قدرة مرنة فى استطاعته امتصاص ظاهرة الرفض هذه . ولكن شريطة أن حرية الاختيار لاتنصب على مظهريته وشكليته ، وإنما تعنى الجوهر وبالتالى نستسمح إن أشرنا إلى نقطة دقيقة لها أهميتها ، ألا وهى خلال المواجهة بين الإيمان والرفض ، من الأولى أن يتم ذلك على مستوى الجوهر ، والإسلام ليس لديه ما يخشاه أو يهابه من واقع مواجهة جادة . نشرح فنقول على الرافضين للإسلام

أن لا يستعملوا تعبيرات مفرغة من محتواها ، لا تتجاوز إطار المحاولة ولمجرد التعويم لا أكثر ولا أقل ، وإنما يحاججونا بحقائق معللة رزينة ومسببة . وكذا على المدافعين عن الإسلام فى القرن العشرين أن يدافعوا عنه من خلال حقائق موضوعية أصلية ومسببة ، وبفضل قدرات فكرية واعية بحقيقة متناقضات العصر .

وعليه ، فالذين يحاولون أن يجعلوا من القرآن والسنة معامل ليكتشفوا فيها فيزيائيات . وذريات ، وصواريخ ، وأقمار صناعية ، يلتقون مع الذين يردون على أى محاجة أو مواجهة بكلمة بيانية إنشائية وألفاظ رنانة تعتمد أولا وقبل كل شيء على رونق الكلمة ومناحيها البلاغية دون أن ترتفع إلى مستوى البرهنة والأصالة الفكرية والعملية . فكلا الطرفين لم يع واقع المواجهة فى القرن العشرين ، وقدرة الإقناع . القرآن والسنة وهما أساس عقيدتنا وجوهرها الأصيل المفروض أن نصل بهما إن برهنة أساسية على مستوى التوافق و التناقض والمنافاة مع التقدم العلمى فلا نجعل منهما مجرد معامل تجريبية أو مجرد خطاب إنشائية .

فالقرآن والسنة مبادىء كبرى أسمى وأخلد من مجرد معامل تخطىء وتصيب تجريبياً وأشمل وأقدس وأعم وأعمق من مجرد ألفاظ يغرد بها للطرب أو تستذكر كرنين بيانى أو إيقاعى .

السؤال المطروح الآن فى المواجهة والاختيار هو أن الهدف فى الكشف عن إعجاز رسالة الإسلام وصلاحيتها لا يكون بتحويلها إلى تجارب معملية أو بالدفاع عنها خطابياً عن طريق الكلمة فقط ؛ وإنما بالرد على تساؤل هام وهو هل هناك (وقد مر على رسالة النبى الحبيب أكثر من أربع عشر قرناً) ما يعارض العلم أو يتنافى معه فى القرن العشرين ؟ هل خطأ العلم القرآن والسنة ؟ أو العكس أكد صدقهما .

إن التقدم العلمى الهائل الذى أحرزه الإنسان حتى اليوم سواء فى ميدان العلوم الطبيعية أو الإنسانية ، كل يوم يشهد بصحة القرآن وصدق

ما جاء على لسان رسوله عليه السلام حتى بالنسبة للظواهر الملتبسة المغمضة، ونعطى كمجرد مثال ظاهرة السحر . فتحديد القرآن لهذه الظاهرة منذ أربع عشر قرناً ووصفها بالتخيل أى تعرية الإرادة وأنها تعلمية (وقد جاء فى عصر كان السحر متصدراً فى كثير من المجتمعات وتنشر حوله أساطير إعجازه وقدرته) ووضعه له فى وضعه الصحيح ، جاء العلم فى مؤتمرات دولية فى النصف الأخير من القرن العشرين ليلتقى مع التحديد القرآنى لظاهرة السحر وما حوله وما أكثر الظاهرات الأخرى التى وردت فى القرآن ، ولو قمنا بتفهم موضوعى لها على ضوء القرآنيات لوجدنا العلم يلتقى تماماً مع كتابنا المقدس الكريم .

حتى بالنسبة للشياطين والجن والنار والجنة وتحريم الخمر والزنى والميسر ، (وقد تعرضنا لبعض هذه الظاهرات فى دراسة لنا عن السحر وما حوله نشرت باللغة العربية) (١). إن علاج السوسيولوجيا كعلم حديث لهذه الظاهرات حينما ندقق النظر فى طرقها العلمية والمنهجية من وصف للظاهر وتبيان لما لها وما عليها وسببيتها من خلال مجموع عواملها ، ثم ما يترتب عليها ، لوجدنا رؤية العلم تلتقى مع رؤية القرآن أيضاً ، وما أكثر الأمثلة لمن يبحث فى نقط الالتقاء بين العلم والقرآن والسنة . وهنا تكمن حقيقة المواجهة الموضوعية الرزينة والبناء .

الجانب الثانى من الاختيار العقائدى ونحى عقائدية الايديولوجيات كنسق لنظام بين الأيديولوجيات القيمية والايديولوجيات المصلحية :

نشير فى البداية ، بالنسبة لهذا الجانب من حرية الاختيار العقائدى للإيديولوجيات إلى حقيقة كثيراً ما التبست على البعض فى دولنا النامية، خصوصاً على مستوى النخبة ، وهى أن الإيديولوجيات فى النصف الأخير من القرن العشرين تتجه أكثر فأكثر فى الدول المتقدمة (ومنها يستقى

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب -

هذا البعض أنماطه الفكرية) إلى المصلحية بمعنى لم تعد إيديولوجيات لها هدف قيمى إنسانى يقدر ما هى مجرد تبرير لمصلحة ونفع استهلاكى أو ربح إنتاجى . وهكذا تتقلب الإيديولوجيات وتتلون ليس فقط فى العام الواحد ، وإنما فى اليوم الواحد أيضاً تمشياً مع المصالح من خلال تصريحين للمسئولين فى الدول المتقدمة الكبرى صناعياً ، نجد تصريحاً فى الصباح يناقضه تصريح المساء . ولكن ليس معنى ذلك كذب أو نسيان ، وإنما المصلحة تتطلب هذا التلون . اعتقد البعض فى صفاء هذه الإيديولوجيات التبريرية المصلحية على أنها إيديولوجيات قيمية تعبر عن مبادىء إنسانية أصيلة فتبنوها وثم راحوا ضحية لها . وكانت خيبة الأمل فى أكثر المواقف والمواجهات . الإيديولوجيات القيمية مع تقدم الآلة صناعياً ، والمعرفة التقنية ، والتطور العلمى ، وزيادة متطلبات المجتمعات الصناعية ، واستلابها استهلاكيا . زابت ، وتحولت إلى شعارات ترمز إلى تاريخ أكثر ما تعنى واقع ملموس . لنتدبر ونعمق النظر فى المجتمعات الصناعية الكبرى . تجرى انتخابات تلو انتخابات ، وتنتصر شعارات على شعارات ، وحقائق المجتمع هى هى : لمحافظون والعمال فى إنجلترا ، الديمقراطيون والجمهوريون فى الولايات المتحـــدة ، والأمثلة كثيرة لمن يعى ويتدبر . وحتى فى المجتمعات التى تزاول ما يسمى بالديمقراطية المباشرة فى ظل النظم الموجهة ، الإيديولوجيات أيضاً تبريرية مصلحية بمعنى تنطلق من مصالح مجتمعاتهم وضروراتها الفورية أكثر من انطلاقها من إطار قيمى غائى كتعبير عنه . وهنا كانت المضاربات وعم الضباب وسيطر على حقيقة الرؤية ، وظن البعض أن هذه الدول تتنكر لوعودها وقيمها فى بعض الأحيان ، كلا إنها بكل بساطة تعبر عن وفائها ودفاعها عن مصالحها ومتطلباتها ، ومستودعات الشعارات موجودة ، تخرج منها الشعار المناسب للموقف المناسب . فعلى شباب مجتمعاتنا الفنية أن يعى جيداً ، يعى أن مصالحة بدورها تنطلق من أرضه الطيبة وإيديولوجياته التقدمية لابد وأن تعبر عن أصالته واعتزازه بواقعه (بالنسبة لنا واقع عربى البيئة ، حضارياً ، وإسلامى المبادىء والاتجاهات ، فى إشعاعه واحتكامه) .

إننا فى عصر التحديات العالمية ، وبالتالى لا مـــكان بيننا لمستلب أو مستلب بالنسبة للدول المتقدمة صناعياً . بعض الشباب فى مجتمعاتنا ، ربما عن حسن نية أو براءة فى التصور ، أو عدم دراية بطبيعة المتناقضات ، يعمل لصالح غيره أكثر ما يعمل لصالح أرضه وشخصيته وأصالته التراثية وأطماحه التقدمية المشروعة ؛ علينا أن نطرح قضية حرية الاختيار الإيديولوجى إلى إطارها الصحيح . فى نهاية القرن العشرين نعيش واقع الإيديولوجيات المصلحية ، النفعية ، المنطلقة من حاجة المجتمعات الكبرى إلى تبرير احتكارها للمجتمعات البشرية الأخرى ، بفضل شعارات تكتيكية تعتمد على فورية المواقف ، وتلقائية الاقناع ، وهى فى نفس الوقت تعنى تحقيق استراتيجية شاملة لا يتعدى دور الإيديولوجيات فيها مجرد الوسيلة للتغلب على المتناقضات الناشئة عن تعدد المصالح .

الإيديولوجيات (بالنسبة للغالبية (أى باستثناء أقلية ما زالت ملتزمة بإطارها القيمى وتفانيها فى سبيل مثلها الأصلية) أصبحت تحت مسمياتها المستحدثة مثل التكتيك والاستراتيجية ، وبفضل تعبيرات عارية عن كل محتوى محدد (فهى تعنى كل شىء ولا تعنى شيئاً بعينه) لا تتنافى فقط مع منطلقها الأساسى وهدفها فى حد ذاته ، وإنما تتنافى أيضاً مع أبسط مظاهر السلوك المعنوى للإنسان وأبعاده الخلقية . لقد أصبح النفاق ، والغش ، والكذب ، والتذبذب وكلها صفات حذرت منها الأديان السماوية إلى جانب تنافيها مع المثل الإنسانية التقدمية والمعنوية والفلسفية والخلقية أصبحت هذه الصفات ضرباً من التكتيك المشروع فى الإيديولوجيات المعاصرة للدول الكبرى وليس فقط على مستوى الفرد ، وإنما على مستوى الجماعات ، بل والمجتمع بأكمله ، وأصبحت الدول الكبرى تبيت سوء النية وتخطط لها بالنسبة للدول المغلوب على أمرها ، وتطلق عليها « الاستراتيجية الشاملة » مستغلة فى ذلك تخلف العقلية الجماعية وجهلها بحقائق الأمور . بل هى تستفيد من جهل الشعوب وأخطائها ، لكى تدعم احتكارها وسيطرتها .

فعلينا وعلى الشباب بصفة خاصة أن يعى ذلك . وكما قال شاعر عربى عريق فى ماضى العصور وإن كان قوله ما زال صائباً ومطابقاً لحقائق عصرنا اليوم :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

على شبابنا أن يكون متدبراً وواعياً بهذه المتناقضات التى تحيط به ، وأن تكون إيديولوجيته الحقة هى الإيديولوجية التقدمية المنطلقة من ذات أصالته وتراثه ومتمشية مع معطيات بيئته الأساسية ومتجاوبة مع قيمه الحضارية الإسلامية العربية العريقة تدافع عنها ، وتعمل على صيانتها وإشعاعها ، وتدافع عن مصالح شعوبها وعن فئاتها الأكثر فقراً وعدداً بإصرار وغيرة ورزانة ومشروعية أمام مصالح الأجنبى ، لأننا نعيش فى عصر فرضت فيه الدول الاحتكارية الصناعية الكبرى مبدأ كثيراً ما نقده فلاسفة مطلع العصر الحديث (ج . ج . روسو ، ولوك .. وغيرهم) ولم يدافع عنه إلا قلة (هوبز وميكافيل) وهو مبدأ اتخذ كشعار له بيت للشاعر اللاتينى « بلوتس » وتبنه هوبز ليعبر به عن حقائق العلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات ، ونعنى به مبدأ « هومو هومينى لوبيس » أى « الإنسان للإنسان كالذئب للذئب » ، بمعنى نعيش أمام الدول الكبرى الاحتكارية فى مجتمع الذئاب لا المجتمع الإنسانى العطاء القيمى المدافع عن أصالته الروحية وأعماقه المعنوية . إنسان الإشباع الغرائزى وهو إنسان المجتمعات الاستهلاكية المعاصرة .

إيديولوجيتنا مهما تنوعت المشارب ، وتعددت الرؤيا فى سبيل تحقيقها ، عليها أن تكون إيديولوجية تهدف إلى الاعتزاز بهويتنا الإسلامية العربية ، الاعتزاز بقيمنا الأصيلة وتقاليدنا العريقة ، وإنسان لا يحترم ذاته ويقدرها ويعتز بما لديه لا ينتظر من الآخرين الاعتزاز به وتقديره . على الشباب أمل الغد أن يعى جيد هذه المتناقضات التى تحيط به ، عليه أن يستوعب ويتدبر لحقائق عصره ثم يقرر بعد ذلك الاختيار وليس العكس .

***

المبحث الثانى

الاختيار الثانى : الاختيار المعيشى
بين التطلع إلى الرفاهيـــة أو الملل منها

نلاحظ ، دون شك ، فى المجتمعات الصناعية ، لدى بعض فئات الشباب الملل من الرفاهية ، ومحاولة لرفض الاستيلاب بها ، ورغبة فى العودة إلى حياة الطبيعة (كمثال ظاهرات كثيرة تقمصت بطريقة أو بأخرى هذا الاتجاه كظاهرة : الهيبية ، والبرفوس ، وما حولها من ظاهرات شبيهة تعبر ضمنياً عن نفس الاتجاه) ، بل وفى أغلب الأحيـــان من باب المحاكاة والتقليد يتجه بعض شباب الدول الفتية النامية وباسم حرية الاختيار إلى تبنى هذا الاختيار ، اختيار الملل والرفض ، غير واع باختلاف البيئة والمحتوى ، وحاجة مجتمعه إلى قدراته ومشاركته فى فترة انطلاقه .

وهنا نتساءل : كيف يمل إنسان فى بداية الطريق ؟ إن كان لبعض فئات شباب العالم المتقدم أن تمل الرفاهية لأنها تذوقتها حتى الشبع . ولكن كيف يمل إنسان لم يتذوق بعد الرفاهية ، فمثله كمثل ملل الجائع من الطعام فى بداية تحضيره له . اللهم إلا إذا كان مريضاً أو عليلا . إذ العكس هو الصحيح . ظاهرة الملل إن وجدت لدى بعض شباب مجتمعاتنا الفتية فعلينا أن نعالجها على أنها ظاهرة مرضية أكثر منها ظاهرة صحية تدل على تعمق المجتمع فى الرفاهية وتنوعها ، والوصول بها إلى مرحلة الملل كما هو الحال فى بعض المجتمعات المتقدمة . ورغم وجودها فى بعض هذه المجتمعات الصناعية الإنتاجية الكبرى فهى ظاهرة معزولة لدى بعض الفئات ولم تحد من قدرة هذه المجتمعات فى الاندفاع والتدرج فى مراحل التقنية والعلمية والتقدم بصفة عامة .

إنها بالنسبة لمجتمع صناعى متقدم تعبر عن سخونة الدفع والحركة والحاجة إلى التهوية كما هو الحال فى عربة قطعت مسافة كبرى من الطريق دون توقف عليها أن تتوقف لإراحة المحركات من قوة الدفع . أما عربة لم تدر محركاتها بعد أو فى بداية تحركها تحتاج إلى تهوية لمحركاتها ، فهذا لا يعنى سخونة بقدر ما يعنى عدم الرغبة فى التحرك أساساً .

إننا قد نلتمس العذر لمجتمع صناعى مندفع ساخن ، أن تلجأ بعض فئات شبابه إلى التهوية دون أن تؤثر فى حركته الشاملة كما هو الحال فى هيبية المجتمعات الصناعية الكبرى . ولكن كيف نلتمس المعاذير لشباب مجتمعاتنا الفتية ! أن تتبنى الهيبية والملل والرفض فى مجتمعاتنا وهى أساساً فى ركودها تعيشها فى شكل طبيعى كشمول فرض عليها خلال فترات الاستعمار ، وقد آن الأوان للخروج منها ، إن مثلها آنذاك كمثل الذى يريد أن يستريح من الراحة . ليس أمام شباب مجتمعاتنا الفتية إلا اختيار طريق التطلع ورفض الرفض والملل ، التطلع إلى غد مشرق . فظاهرات الملل والرفض ظاهرات مسمومة ودخيلة سواء بحسن نية وفى أغلب الأحيان بسوء نية ، فمن المسلم به أن المجتمعات الصناعية الكبرى تعمل دائماً على التخلص من ظاهرات الرفض والملل عند شبابها ، وذلك بتسهيل بل وبتشجيع هذا الشباب الرافض والذى يمارس الملل عندها على الرحيل إلى المجتمعات الفتية ، وعلى الاحتكاك بشبابها تحت شعارات اللقـــاءات والمسامرات الصيفية ، إنها طريقة من طرق متعددة لشل قدرة المجتمعات الفتية على الخلق والنهوض ، لأن الشباب هو عدة هذه المجتمعات وكما يقول المثل « رمتنى بدائها وانسلت » .

على شبابنا أن يكون طموحاً متطلعاً ، وله الحق فى ذلك ، له الحق فى أن يحقق مجتمع الرفاهية والحياة الكريمة بعد مسيرة طويلة من المعاناة فى فترات الاستعمار . ومع هذا ، علينا حتى نكون صرحاء مع أنفسنا أن نضيف : « ولكن للرفاهية هذه حدود » بمعنى لا يتحول الإنسان إلى عبد لرفاهيته المادية ويصبح مثله كمثل « المنبت والمتهالك على الدنيا ، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » بمعنى لا يصل إلى هدفه لأن الرفاهية

حينما تصبح هدفاً فى حد ذاتها وليس مجرد طريقة كريمة تولد مزيداً من الحاجة إليها ، فيظل الباحث عن المزيد شأنه شأن المتهالك الذى يلهث ولا يرتوى ، فكلما ترفه الإنسان وجعل الترفه غايته وليس تحقيق مثل أسمى من الرفاهية ، يخضع ويستلب باسمها ويصبح عبداً ميسراً لها ، ولا يستيقظ ويعى حقيقة استلابه إلا فى لحظة الاحتضار والاستعداد لدخول القبر . حيث مثواه الأخير ومقره الدائم ، وهو مقر لا يتطلب الرفاهية ، وإنما مدى ما حققه من عمل صالح وبناء باقى أبد الدهر بعده . عليه بالتالى أن يكون وسطياً فى رفاهيته كما أرشدنا إلى ذلك ديننا الحنيف حين جعل الوسطية هى الحل الأفضل للحياة الكريمة ، حتى وسطية الإنفاق ، ووسطية المشى والكلام . وما علينا إلا أن نراجع الآيات الكريمة التى وردت فى سورة الإسراء والسور الأخرى التى تحدث على الوسطية حتى شمولنا كأمة دعانا الإسلام أن نكون وسطيين « أمة وسطا » (١) وما أروع ما يحتويه معنى أمة وسطاً فى كل مناحيه وجوانبه المتعددة من حقائق بناءة وأصيلة .

وسطية الرفاهية تعطى لنا حقيقة التذوق وصدق المشاعر بها . إن من يغالى حتى فى رفاهية طعامه قد تحرمه مغالاته من الشعور بالتذوق وتدفع إلى الحسرة والملل ، وهى حسرة أشد وأقسى من حسرة المحروم من الطعام بمعنى حسرة من يعاف الطعام ويسأمه وهو أمامه ولا يجد شهية فى أكله تفوق بكثير حسرة الراجى للطعام والمتشوق إليه ، فهذا ما زالت لديه لذة التشوق المنبعثة من شعور الأمل بالحصول عليه ، بينما الآخر بفقدانه لذة التشوق بعد فقدانه لاشتهاء ما هو بين يديه قد فقد فى الواقع كل شىء . المغالاة والوصول بالرفاهية إلى حد التطرف يفرغها أساساً من محتواها وتصبح مجرد نوع من التشيىء والإسقاط والضياع فيه أو الوصول به إلى الاستلاب لا أكثر ولا أقل .

إذن رفاهية فى ظل حياة كريمة دون الاستلاب بها ، وذلك بفضل وسطية واعية تجعل منها وسيلة للحياة لا هدفاً غائياً لها .

---

(١) البقـرة : ١٤٣ .

المبحث الثالث

الاختيار الثالث: الاختيار فى بناء الأسرة
بشريك أو شريكة للحياة بين عاطفة مندفعة بالغريزة
وعاطفة منطلقة من التقدير المتبادل وبين الاختيار المصلحى

قضية حرية الاختيار فى بناء الأسرة لدى الشاب والشابة قضية تحتاج إلى شيء من الصراحة والتوضيح وتحاشى التغميض ما أمكن . حرية الاختيار لدى الشباب بالنسبة لبناء الأسرة مهما كانت أبعاده مشروط أولا بالإطار الزمنى ، فشاب وشابة فى مقتبل العمر — العشرينيات مثلا — مقايسة فى الاختيار ، قد تختلف عن شاب وشابة فى الثلاثينيات من عمرها ، كما تختلف بالأحرى عند رجل أو امرأة تجاوزا الأربعين من العشرينيات إلى الثلاثينيات مقاييس الاختيار كثيراً ما تتغلف فى إطار غرائزى مشبع بالعاطفة أى يتصدر العامل البيولوجى مع العاطفة ، وفى الثلاثينيات غالباً ما يتناوب الاختيار بين عاطفة التقدير المشبعة بالغرائزية ، والعكس وبين تحقيق المصالح المشبعة بالغريزة أو التقدير ، وتلعب الظروف أحياناً دوراً أساسياً فى تغلب أو تصدر أحدهما على الآخر ، باسم الحاجة والضرورة . وفشل الاختيار لا يتوقف على الإطار الزمنى بقدر ما يتوقف على مدى تعرف الشاب أو الشابة على ما ينتظره أحدهما من الآخر وعلى مدى تغلب نقط الالتقاء على نقط التباين ومدى تزكيتها ، والإكثار أو الإقلال من أهميتها . فكثير من الشباب يجهل عمقه ، ولا يستطيع أن يحدد ماذا يريد أساساً ، بمعنى لا يفهم نفسه ، فمن باب أولى لا يفهم الطرف الآخر ، وآنذاك يترك للآخرين يقيسون له النسق الملائم فى الاختيار ، ثم يوجهونه فى معايير الفشل أو النجاح . إن وعى الرجل حالياً بحقيقة دور المرأة ، ووعى المرأة بحقيقة دورها ، وبما طرأ على دور الرجل وعلى دورها من تغيرات جاءت نتيجة لمتطلبات العصر قد يساعد كثيراً فى صحة الاختيار وصلاحه ونجاحه بالتالى .

فالشاب فى النصف الأخير من القرن العشرين ، عليه أن يعى أن طبيعة تعليم المرأة وزمالتها له فى المجتمع إلى جانب مشاركتها له فى الأسرة ، قد دعم إطار الحقوق وعادل بين إطار الواجبات بالنسبة للرجل ، فطبيعة الحياة فى هذا العصر حدت عملياً من حقوقه المطلقة على المرأة واتجهت به إلى المعادلة مع الواجبات . وذلك حينما أصبح للمرأة دور مزدوج فى الأسرة والمجتمع ، فى الأسرة كشريكة وفى المجتمع كعضوة (هذا الدور المزدوج كثيراً ما يلتبس على المرأة والرجل على حد سواء ، فيفهم المجتمع على مستوى المشاركة ، ونفهم الأسرة على مستوى العضوية) ، وكثيراً ما يطغى الدور المجتمعى على الدور الأسرى بل ويذيبه ، بينما العكس هو الصحيح ، أى أولوية الدور الأسرى على الدور المجتمعى . الدور الأسرى سابق للدور المجتمعى وليس العكس ، فالمرأة قبل أن تكون عضوة فى المجتمع هى أم لأسرة وزوجة لزوج . الحق الاجتماعى مكمل وليس أساسى . وإلا اهتزت كل المعايير وتقوضت الأسرة ، وبالتالى انهار المجتمع الذى تشكل الأسر خلاياه الأساسية . ولن تفقد آنذاك فقط دورها الاجتماعى ، بل فقد المجتمع بأسسه وانفصمت أسره .

دور المرأة فى المجتمع ، عليه أن يتكامل مع دورها فى الأسرة ، ويكون امتداداً له ، تكامل الأصل مع جزئياته . وهنا نطرح مشكلة ملموسة حالياً فى بعض المجتمعات ، وجاءت نتيجه لالتباس دور المرأة المزدوج (وقد أشرنا إلى ذلك فى حديث لمجلة روز اليوسف القاهرية فى مناسبة سابقة) وهو التباس يقود فى النهاية — نظراً لعدم الوعى — إلى الانعكاس فى الأدوار ، فيطبق الرجل أو المرأة دوره الأسرى فى المجتمع ، ودوره المجتمعى فى الأسرة . يفهم الدور المجتمعى تحت شعار المشاركة ، ويفهم الدور الأسرى تحت شعار العضوية .

وهكذا تصبح العلاقة بين الرجل والمرأة فى المجتمع علاقة مشاركة ، بكل ما تحتويه الكلمة من معنى مشاركة فى العواطف ، مشاركة فى دخائل الأمور ، وبالتالى تتحول العلاقات المجتمعية فى المكاتب والمؤسسات

وبقية أجهزة المجتمع بين الرجل والمرأة إلى علاقات مشاركة أسرية مجاملة وحناناً ، وعطفاً ، وحتى ملاطفة وحباً ، بينما تتحول العلاقات الأسرية فى المنزل إلى مجرد علاقات بين عضوين فى مؤسسة لا أكثر ولا أقل ، لتبادل المصالح والمحاسبات ، وهى من خصائص العلاقات المجتمعية . فى المنزل تحتفظ الزوجة لزوجها وكذا العكس من حيث المظهر بالكلمات الجافة المختصرة ، واللباس والزينة ، دون اهتمام بهما ، وعدم اللياقة والمراعاة . ومن حيث الجوهر ، تأخذ العلاقة طابع روتينى شكلى عارى عن كل رعاية وحنان وجذب وتكامل أو اندماج . مصالح وحسابات ، شركة مساهمة تجارية بين عضوين . بينما فى المجتمع ، فى المكتب أو المؤسسة ، تحتفظ الزوجة لزميلها رئيساً أو مرؤوساً ، وكذا العكس ، من حيث المظهر بكلمات المجاملة والملاحظة ، والاهتمام باللباس والزينة . ومن حيث الجوهر تأخذ العلاقة طابع بنيوى ملىء بعناصر الرعاية والجذب والمشاركة والتكامل وحتى الاندماج ، وتحاشى ما عدى ذلك ، هذه هى مقومات الدور الأسرى لا الدور المجتمعى ، بينما المقومات الأولى هى مقومات الدور المجتمعى وليس الدور الأسرى،وهذا ما نعرفه بالتباس الدور فى المجتمعات الحديثة وانعكاساته . على شبابنا أن يرى هذه الحقائق ويعى بحقيقة المعايير البيولوجية والعاطفية والمصلحية ، وبحقيقة وضع الإطار الزمنى فى حرية الاختيار . ثم مدى نجاحه يتوقف على معرفة حقيقة الدور الأسرى وحقيقة الدور المجتمعى ، وكذا العلاقة بين الدورين بما فيه بقاء الأسرة واستقرارها وتقدم المجتمع ورقيه . الأسرة مشاركة وتكامل واندماج ، مراعاة وحنان وعاطفة ، ومجاملة ، وتفانى كل طرف ـ الرجل والمرأة على حد سواء ـ فى سبيل إسعاد الطرف الآخر ... بينما فى المجتمع عضوية ، وزمالة فى سبيل خدمة الصالح العام وفى ظل الاحترام والتقدير المتبادل بين الطرفين ، وهكذا تستقر الأسرة وينهض المجتمع .

★★★

المبحث الرابع

الاختيار الرابع : الاختيار السلوكي في العلاقات الاجتماعية بين الاندفاع والانفعال ، وبين التروى والممارسة

من المسلم به أن الشباب غالباً ما يميل بطبيعة سنه ، إلى الاندفاع والانفعال والمجازفة ؛ فمرحلة الشباب هى مرحلة تكامل النمو الجسدى ونضوجه واكتمال طاقته ، وبالتالى لكى تتجه الشخصية إلى سلوك قروى وممارس وتلتزم بالتعقل والاستيعاب تحتاج إلى كثير من الترويض والوعى ، والتحلى بالصبر ، والتفهم فى اتخاذ المواقف المتزنة ، وتبنى الاتجاهات السليمة . إذ كثيراً ما تتغلب النزعات الفورية الغير متبصرة على هذه المواقف وهذه الاتجاهات ، دون التزام بسببية الأشياء بعد استيعاب مضمونها بأبعاده المختلفة ، وإنما مجرد الالتزام بشكليتها .

إن حرية الاختيار السلوكى فى العلاقات لابدوأن يتمشى مع واقع العصر الذى تزاول فيه هذة العلاقات . وواقع نهاية القرن العشرين واقع معقد فى علاقاته الاجتماعية نظراً لكثافة هذه العلاقات وتداخلها ، وتعدد أبعادها وتناقضها أحياناً ، ومن ثم حتى يصبح السلوك ناجحاً لابد من التروى والابتعاد ما أمكن عن المجازفات الفورية والتلقائية فى اتخاذ المواقف وتبنى الاتجاهات .

ولابد للسلوك أيضاً من الاعتماد على سببية . وعلى تحديد الغايةوالهدف بالنسبة لإبراز الشخصية ولفت النظر إليها إيجابياً ، وأن يخفف من حدة التناقض مع سلوك البيئة الأسرية والمجتمعية المحيطةبالشخصية ، وذلكبفضل المرونة فى المواجهة والتبصر وعدم التذبذب فى المبدأ والاتجاه .

والإصرار على الموقف يكون بعد استيعاب للحقائق واقتناع واعى بها ، وملتزم بتعليل ومحاجة حكيمة ، ولايكون منطلقاً من العناد ، بمعنى الإصرار لمجرد الإصرار . وعليه حين يبدو له خطأ موقفه وعدم اعتماده على سببية يكون الرجوع إلى الموقف الحق ، والاعتذار عن الخطأ دون حرج أو شعور بنقص .

والموقف الحق ، هو الموقف الموضوعى المسبب برؤية وتعليل مقنع فى جوهره ، وحينما لاتتضح الرؤية فى الموقف من الأفضل التروى كما ذكرنا ، وعدم التسرع حتى تنجلى الرؤية ، ويسهل التحديد الصحيح .

لاشك أن طبيعة عصرنا هذا : عصر الأسس العلمية ، والمعرفة التقنية ، عصر التقدم والتصنيع ، تحتاج إلى مزيد من الممارسة فى السلوك الاجتماعى وأيضاً الأسرى . الشخصية التى تتبنى الممارسة والتروى هى أكثر قرباً من النجاح فى هذا العصر من الشخصية الانفعالية المجازفة . اختفت الفروسيات العضلية لتتفجر قدرة العقل المتحكمة فى الأشياء . وبات الأكثر سيطرة هو الأكثر وعياً ، وعلما ، وتفهما ، وممارسة ، وروية ، حيث تقل مواطن زلله ، وتندر احتمالات انزلاقه ، لأنه يتحرك على أرض صلبة ، بينما تتضاعف زلات ، ويكثر انزلاق المندفع المنفعل المجازف . وكثيراً ما كنا نلاحظ (فى الجامعات الأوروبية حينما أتيحت لنا فرصة ممارسة التدريس فيها) من خلال المقارنة بين أبناء مجتمعاتنا النامية الفتية ، أن ذكاء أبائنا وقدرتهم تفوق أبناء هذه المجتمعات الصناعية ، ولكن أبناء المجتمعات الصناعية كانوا يستغلون تسرع أبنائنا فى الحكم على الأشياء وعدم الاستيعاب الكامل لها والاكتفاء بالنظرة السريعة الفورية ، والاندفاع فى التعبير عن المدلول ، مع انفعال ودون ضبط للنفس وغيبة الصبر وضعف قدرة الاستمرار فى المسيرة العلمية ، لكى يفوقوهم ويتفوقوا عليهم فى مراحل الدراسة . اللهم إلا بالنسبة لفئة من أبنائنا استطاعت أن تحول الانفعال والاندفاع إلى طاقة بناءة مواجهة أكثر تبصراً للمواقف

العلمية وجوهر البحث فيها . وإلى قدرة أكثر مرونة ووعياً فى تفهم طبيعة العلاقات وممارستها .

السلوك المنطلق من الانفعال والاندفاع والمجازفة فى العلاقات سلوك كثيراً ما ينخدع ولا يصيب غايته ، وبالتالى لايتحقق له الاستمرار والدوام ، لأنه معتمد على انطباع شخصى ، ويحتكم إلى الإيماءات وانعكاساتها أكثر مايحتكم إلى سببيات موضوعية ، أو يلتزم بهدف صحيح . فتحية غفل عنها ، أو عدم رد على تحية أو زيارة أو وجه منقبض قد يكون لذلك تأثيراً جذرياً يقوض جوهر علاقة طويلة الأمد بين شخصين أو أسرتين حينما يكون منطق السلوك انفعالى النزعة واعتباطى الموقف والهدف ، فتصبح العلاقات الاجتماعية علاقات مهتزة ، ومتقلبة ، خاضعة للأهواء لا أكثر ولا أقل ، بينما السلوك الواعى الممارس المعبر عن مواقف أصيلة هو السلوك الذى يصل إلى غايته ويضمن له الاستمرار والدوام ، بفضل عدم تحكم النزعات الفورية فيه ، والإيماءات العشوائية ، لما فيه من قدرة تغاضى عن صغائر الأمور وتوافهها والرد على الإيماءة الخاطئة بما يضمن تصحيحها وتحاشيها فى المستقبل ، لأنه سلوك يترفع بهدفه عن الشكليات والعفويات .

هذا السلوك الواعى الممارس الحكيم المتفتح المرن فى العلاقات الاجتماعية بما يضمن استمرارها وتدعيمها ، وبالتالى بقاء التضامن للأسرة وبين الجماعات وفى المجتمع بصفة عامة ، هو السلوك الذى حثنا ديننا الحنيف على تبنيه وجسده لنا رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) بسلوكه النبوى الشخصى فى عصر النبوة ، ودعانا إلى اتباعه فى كل المناسبات . ويا حبذا لو تأمل شبابنا ذلك فتمثل بالمبادىء القرآنية فى سلوكه ، واقتدى بالرسول فى تطبيق هذا السلوك ، وكيف كان صلوات الله وسلامه عليه يقنن العلاقات بالمعايير الصحيحة الواعية ، ملتزماً بمواقف وأهداف سليمة أصيلة بعيدة عن العفويات ، ليس فقط فى علاقاته مع من آمن به ،

بل حتى مع عدوه حين الدعوة منطلقاً من المبدأ القرآني السامي : **«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »(١)** الكلمة الطيبة ، الرد على السيئة بالحسنة ، التخلي عن الفظاظة والغلظة ، فظاظة اللسان ، وغلظة القلب . التحلي بالصبر وشجاعة الممارسة وقهر النفس . الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسلوك الرسول وصحبه نموذجاً خالداً لشبابنا إذا ما أراد البحث باسم حرية الاختيار عند الاختيار الذي يضمن لسلوكه الأسري والمجتمعي في علاقاته – بفضل التبصر ، والتروي ، والممارسة الواعية – مزيداً من النجاح ، وتحقيق الغاية المنشودة ، سواء بالنسبة لتأصيل شخصيته ، أو تدعيم روابطه الأسرية والاجتماعية بما فيه خير أمته ، بل والإنسانية جمعاء .

***

(١) النحل : ١٢٥

obeikandl.com